جنـــاية مشروعة

أقصوصة مصرية

بقلم الآنسة جميلة العلايلى

دقت الساعة السادسة تماماً فتأهبت الفتاة لاستقبال الزائر ...

ودخلت عليها أختها قائلة : ما أعجب أمرك ! ترفضين الذهاب إلى العرس من أجل ضيف تقضين الوقت معه بين الورق والحبر فى نقاش يجمع بين الجهد والملل ! اتركى له كلمة رقيقة وتعالى نتمتع بالطرب هناك ... فى مقدورك لقاء الضيف مرة أخرى وليس فى مقدورك مشاهدة الفرح إلا فى مناسبات بعيدة، وقد لا يكون مثل هذا الفرح فالعروس جميلة وها هى ذى الأضواء تبدو كحروف ملتمعة تعلن فى زهو وبهاء مبلغ السرور . هيا اعتذرى وتعالى نشاهد مفاتن الحياة والبهجة الطليقة ...

فهزت الفتاة كتفيها فى إباء ونظرت إليها وهى تخطو بعيداً مبتسمة قائلة : يا أختاه ... أتظنين مسرات الوجود كلها تشفع لمذر موهوم ... إن احترام الوعد عندى أحق من مباهج الحياة . ثم ألا يصح أن يكون هـذا الحوار الجاف كما تسمينه أمتع وألذ وأنفع من أغانى الفرح وأضواء العرس وظواهر الصناعة وكلفة المجاملات

فطت الأخت شفتيها وهى تغمغم فى مرارة قائلة : لشد ما أحزن لك ... تهربين من الحياة ومن نفسك ... والحياة تمدو خلفك متمسكة بأذيالك رغماً عنك ... فهما حلقت فى سمائك فأنت معنا تعيشين ... سيمر الوقت وينتهى الحديث ويخرج ضيفك فإذا أنت كما أنت ... لن يفرج الضيف عن أساك ولن يشاطرك أحلامك . ولن يبعث المسرة الأكيدة إلى نفسك ، أما هناك فستغمر روحك مسرة الأنس ويبتسم قلبك تجاه البشر المجسم على كل وجه طروب ...

هيا اعتذرى ولا ترددى ...

ولما صعب عليها التأثير على أختها خرجت شبه غاضبة ...

الساعة السادسة والنصف ... ولم يأت الضيف بعد وميعاده السادسة تماماً ...

لا شك أنه فى طريقه فقد يكون الترام تلكأ به

وتترك مقعدها وتهرع إلى الحديقة تتأمل الزهر وتشم الورد وتحملق فى الأفق البعيد ...

آه لو كان فى مقدور الانسان أن يعرف بحسه ما وراء المجهول ... لاستطاعت فى هذه اللحظة أن تنعم بالوقت كما تشاء

آه لو استطاعت أن تتموج كالنغم طى النسيم لتعبر هذه المسافات لكى تصل إلى هناك حيث يكون لتعرف ماذا هو صانع .. أهو فى طريقه إليها فتنتظره أم تراه لاهياً بشأنه فتتصرف فى وقتها ...

حكمتك يا رب جليلة ... لا شك، ولكن الذى لا أفهمه؛ لماذا ترتبط الجهالة بالأحلام وترتبط الأمانى بالخيال ...

لماذا ؟ ... لماذا ؟ ...

فى هذه اللحظة عرفت الفتاة مبلغ الألم الذى يعتور الحبيب إذا انتظر حبيبه وطال الانتظار

وإذا كانت هى لم تحب ذاك الطيف فقد تحترمه وقد تقدره لفضائل مثالية تلمحها من وراء ذاته؛ وقد تكون معجبة برجولته القوية التى تتجلى فى نظرته الحادة ... ثم هـذه البسمة الحقيقة التى ترتسم على شفتيه مهومة فى خفة أشبه بعبث الطفولة البريئة . لـكن يروعها ذاك المكر الذى رسم ظلاله على جبينه الفسيح فى شبه خطوط غير مرئية تتصل بمنبت شعره ... والذى يعينها على تفهم نفسيته ذلك الحلم العميق الذى يتراءى من وراء منظاره يفيض بشعور قلب يرجو، ويسخر بهذه الخواطر شغلت وقتها حتى بلغت الساعة السابعة ...

دقت الساعة ... فتذكرت صديقتها التى رفضت لقاءها فى هذه الساعة ، لـكى تترك لضيفها حرية الحديث ...

أى ملل يملك نفسها هى التى لا تشعر بالملل أبداً ، لأنها تشغل وقتها دائماً ... دائماً ... وقلما تحس بالخلو والسأم ...

مالها الساعة تشعر بضيق يجوب جنبات صدرها فى عنف فيجذبها إلى ظلمات الأفكار ...

يا للقدرة الخفية الهائلة التى تعبث بالخواطر ، والأحلام ...

فى لحظة يتشوه جلال الرجل النبيل ... وهمس ضميرها الرحيم : قد يكون قابله صديق ثرثار ... أو يكون جد له ما لم يكن فى الحسبان ...

لـكن لماذا لم يعتذر بالتليفون ... أو عن طريق رسول ؟ أهكذا يعبث الرجل باليماد ؟

وابتسمت الفتاة على مضض وتحدثت إلى نفسها فى غير صوت :

آه لو لم أكن أجد فى كل شىء لهان الأمر ، ما أغبانى . كان يجب أن أعرف إن كان جاداً أو هازلاً عند ما وعدنى

وتأففت فى مرارة وراحت تتسلى بالقراءة ...

لـكن أى عقل يبى ما يطالعه ، وهو شارد فى أضاليل الحياة ...

عله لم يتعمد الكذب... وشفع له عقلها ...

ولـكن شبه شعو غامض يحز فى جنبات نفسها.. أتكون هى موضع السخرية هى ، التى تسخر من كل شىء ...

من المؤلم حقاً ... أن تفهم كل شىء جادة ... وتستقبل كل شىء جادة، تجد فى كل قول وكل فعل...

وارتمت على مقعدها لتحلل هذه الظاهرة الغريبة ومرّ بذهنها صور المشاق

وتصورت نفسها بعين الخيال عاشقة ثم جسّم لها الخيال الوهم حقيقة فإذا بها فى هذا الموقف تنتظر حبيبها فلم يحضر ..

ماذا تفعل ؟

أتعاتبه ؟.. وهل يرفه العتب العذاب ؟ أتهجره ؟ وهل يمحو الكذب سطور الحب من الكتاب ؟

ثم تلمست قلبها فإذا خيالها يرتد عنها وإذا هى خلية الفؤاد

فحمدت الله فى استسلام لمشيئته المحتومة

وتطلعت إلى الأفق فرأته صافياً أصفى من ماء النمير

فارتد بصرها إلى ذهنها يعرض عليه مشاهد الوفاء والإخلاص ، فتساءلت : لماذا لا يكون الوفاء دين الناس جميعاً ؟

لماذا لا نحكم ضمائرنا دائماً لنسلم من الشرر ...

ومرّ بها خيال الضيف .. فتأملته من جديد ..

وهاجت نفسها وبدأ صدرها يتنفس بزفير الغيظ ... فلطف عقلها من حدتها مستميناً بخيالها على تصوير فضائله ..

إنها لا تشك فى نبله ورجولته ولـكن كيف أباح لنفسه أن يجنى عليها ؟

علّه لم يتعمد هذه الجناية ... ولكنه جنى على عواطفها فأسلمها إلى مرارة الشك فى كل شىء . . وجنى على عقلها فاتهمته بالخبل والجهالة ..

إنها بطبيعتها تشك فى الرجل . . . ولكنها تخص بالشك الرجل الذى يحبها ، وهذا لا يحبها .. فليس هناك ما يبرر هذا الشك ..

الله أكبر الله أكبر . . . على النفس الكبيرة عند ما تهزم

الله أكبر الله أكبر ، على العقل الجامح عند ما يخمد

الله أكبر ، الله أكبر ، على الرجل الناضج عند ما يكذب ...

ودت لو تدفع من دمها ثمن جناية الرجل ، لتظل محتفظة فى ذهنها بصورة تنتمى إلى الكمال بصلة

وهرعت إلى مخدعها لتدفن فيه خواطرها ... فإذا بها تزداد ثورة وشجنا

إيه يا رب العالمين ... لماذا تعذبنى بخيالى وأنا أقرب العباد إليك بإيمانى ؟

يارب ... لماذا تجازنى الحياة شرًّا ودى دفعته قربان الخير فى سبيلها ؟

يارب ... لماذا استودعت قلبى حرارة الحق وسيرتنى فى طريق الأباطيل ! ؟

يارب ... لماذا فتحت عينى على نور جلالك ، وقيدتنى بظلمة الدنيا ؟

يارب ... لماذا تفتح شفتى عن بسمة الرجاء ، فتجاوبنى الحياة بالدموع ؟

يارب ... يارب ... خذنى إليك طاهرة متطهرة أو هيئ لى فى الدنيا مقرًّا فيه ما أرجو من صدق وطهارة ...

يارب ، يارب ... لماذا منحتنى إدراكاً يعينى على تفهم كل شىء ، ولم تهيئ إنساناً ليفهمنى ؟

يارب ، يارب ... إنى أخر راكعة تحت عرشك وأسألك : لماذا سلمتنى مفتاح القلوب وأغلقت قلبى دون الناس أجمعين

يارب ، يارب ... ألا ترفعنى إليك . ألا تبعث إلى من لدنك ملكا ؟ لو فعلت يارب أعرف كيف أهزج باسمك بكرة وأصيلا وأقيم الصلاة مرتلة آيات شكرك ترتيلاً ... عرفت طريق الخير يارب فأعنى على اجتيازه حتى النهاية !

وتنبهت الفتاة من هذه الغيبوبة الحالمة على صوت أخيها وهو يناديها فإذا بالدموع ندت الوسادة ...

وخجلت الفتاة وأرخت جفونها لكيلا يلمح الأخ مدامع الأسى الدفين . وتعتذر فى لطف لتعاود النوم فيقول : معى رسالة من أمك

أوه ! رسالة من أحب مخلوقة لديها ... يا للهفة التى انتشت ... ولكنها دامعة فإذا رفعت نظرها لمح الأخ مدامعها ... وهى لا تريد أن يراها باكية

قال الأخ مداعباً : لن أسلمك الرسالة إلا إذا قمت فآثرت النوم أو على الأصح مواراة شجنها على على قراءة الرواية

وفى الصباح الباكر قبل الأخ جبينها ليوقظها قائلاً : غداً يهنأ السعيد بهذا الوجه الصبوح ويستلهمه قوة تعينه على أعباء يومه فى كل صباح

فابتسمت قائلة فى دعابة : صباح الخير ... دائماً ، دائماً تنقلنى إلى حلم الزواج كأننى عالة عليك !

فتجهم وجهه وطوقها بذراعيه فى حنان وهو يقول : يسعدنى أن تكونى معى إلى الأبد قانعاً بك عن مسرات الوجود ... لكن لا بد من إسعادك . لا بد من تركيز حياتك . أراضية أنت عن حياتك الطليقة ؟ أتظنين السعادة فى هذه الطلاقة ؟ أتحسبين هؤلاء الذين يتمرغون تحت أقدامك سيتعلقون بك دائماً وبعد أن يدبر شبابك ... إنهم يحبون الحياة

الشابة الفتية فيك الآن ... وغداً بعد أن تذهب عنك نضارة الشباب ينظرون إليك نظرة خاوية لاحب فيها ولا آمال . أنت الآن فى ريعان الشباب تجذب حيويتك كل من رآك ...

لا أنكر أن جاذبيتك لا ينضب معينها . . . ولكن يجب أن تصونى هذه الجاذبية ولا يصونها غير الزواج ... فى تركيز حياتك واستقرار عاطفتك حفظ أنوثتك وجمالك ...

فتململت الفتاة وقالت : ولكننى لا أريد أن أتزوج إلا برجل أفهمه ويفهمنى ...

فتأفف قائلاً : أهناك من ارتبطت معه وأنا لا أدرى ، ونظر إليها محملقاً ثم استطرد ... حذار يا أختى من وعود الرجل .. أنا رجل وأعرف كيف يحب الرجل المرأة ، ومتى يفضلها على نساء العالمين

الرجل الذى يحبك لا ينتظر الظروف ولا يتركك للقدر، ولا يتوانى ليملكك ، إنه يتقدم إلى طلب يدك دون علمك ودون أن يفاتحك فى أمر حبه وزواجه أما ذلك الذى يحاورك ويستمهلك فكاذب مراء ، أنا أعرف أن الذين يجرون وراءك كثيرون . . . كثيرون جداً ، ولكن حذرك وتحفظك هما اللذان يدفعانهم للجرى والتملق بأذيالك ... ولو كنت كالأخريات تعطين من نفسك كل ما يطمع فيه حبيب ، لولوا الأدبار من زمن بعيد ... أفهمت ...

ثم وضع يده على كتفها فى حنو مردفاً :

والآن ، يجب أن تتركى حياتك الخيالية وأحيى الواقع ، واليوم أقدم لك رسالة أمك ، وهى تدعوك لتدعيم حياتك الزوجية ، ولا مانع عندى من أن نسافر معاً لإتمام الأمر ، وأنا مطمئن لهذا الخطيب

قالت : من تعنى ؟

قال : فلان ...

فذعرت صارخة : هذا لا يمكن أبداً أبداً

فتلطف بها الأخ قائلاً : وما السبب ؟

قالت : إنه لم يتقدم إلى إلا بعد أربع سنين .. لماذا لم يطلبنى قبل الآن . وضحكت متهكمة مرددة: بعد أن خانه التوفيق مع الأخريات ، وبعد أن عبث بقلوب بريئة !

فقاطعها قائلاً : لا يوجد الرجل البكر يا أختى. كل الرجال تلهو، حتى إذا تزوج الرجل ركز عواطفه، قانعاً بالزوجة ، خصوصاً إذا كانت مثلك !

قالت : أنا أفضل الرجل الذى يلهو ويعبث كما يحلو له ، حتى إذا أحبنى استقام وركز وجدانه وقنع بى ...

أنا أريد رجلاً جرب مفاسد الحياة لأعلمه الفضائل وأسمو به حيث نحيا فى الذرى .

إن هذا الرجل يريد أن يتزوجنى بعد أن بحث طويلاً . فلو أنه عرف فتاة تماثلنى أو أفضل منى لما عاد إلى !

وأنا أريد الرجل الذى يرتبط بى منذ أول مرة يلقانى فيها شاعراً بأنه عثر على ضالته المنشودة ونصفه المتمم !

ثم دمعت عيناها بحرارة عواطفها الحرى وقالت بلهجة يسبقها أنين الشجن : لا أريده لا أريده ... قف بجانبى وساعدنى على الرفض !

فأطرق الأخ مفكراً ، وتركها ، وذهب لشأنه ثم طالعت الرسالة ...

تحتم عليها الأم أن تسافر لتتفاهم معها فى تزويجها وذكرت لها اسم الخطيب

مشكلة أخرى ... هربت منها منذ حين !

وفكرت فى الخطيب ...

فلم يبتسم القلب ولم ترحب الروح .. هو رجل فى عرف الناس عظيم وفى نظرى الأهل كفيل بسعادتها ... أما هى ... فلم تحبه ولن تحبه فكيف ترضى به زوجاً ؟

أيسعدها المال الذى يفاخر به ؟ أيشبعها الجاه الذى يتمتع به ؟ أيعينها على تأدية رسالتها المثالية ؟ كلا ... إنه يحبها ، ولكن الحب الذى يفهمه كل رجل عادى ...

وهى تريد أن يحبها الحب الذى تفهمه هى، تريد أن يحب فيها الحب الذى لا ينضب معينه ... تريد أن يحب فيها سراً غامضاً يصل بين قلبه وقلبها ...

إنه لا يفهمها ... يحسب أنها امرأة تبعث المسرة فى القلب الحزين

وقد تكون كذلك ... ولكنها أيضاً وتر من حسّ لا يتغنى إلا إذا داعبته أصابع فنان ماهر. وهى فكرة ناضجة لا تخرج للوجود إلا غذاها عقل ناضج

إنها لا تريد أن يرفعها إلى حياة الترف والنعيم بل تريد أن ترفعه هى إلى حياة المجد والخلود ... تريد أن تشعره بمتعة الروح وتآلف القلب وسحر التجارب، تريد أن تعلّمه قصيد التمازج الكلى. تريد أن تسمعه أناشيد الهوى المستمر

تريد أن تكون له الزوجة بعواطفها والصديقة بعقلها والحبيبة بشغفها والأم بحنانها والأخت بعطفها وأخيراً أم أولاده بشجاعتها ويقينها ...

فهل يفهم هو كيف يوجهها إلى هذه الحياة ؟

وانسرحت الفتاة مفكرة فى مآلها ... واستعاد ذهنها صور كل الرجال الذين ينشدونها

فابتسمت على مضض مغمغمة : ولا واحد ... ولا واحد ...

ولكن رغبة الأهل ملحة . وهى فتاة رغم إرادتها وقوتها خاضعة لمشيئتهم فما عساها تفعل ؟ !

وفكرت طويلاً... ومن غير وعى كتبت إلى الخطيب:

سيدى ...

كان المفروض أن تراني فى نهاية هذا الأسبوع لتعقد علىّ كما اتفقتم ...

وأنا فتاة صريحة جريئة أفضل الموت مع الحق عن الحياة مع الباطل ..

أنت فى الواقع رجل طيب عظيم جدير بفتاة أجل وأفضل منى ...

وأنا فتاة مريضة ... مريضة بالخيال يا سيدى ومثلى لا تصلح لرجل مثلك .. ستقول — كما قلت سابقاً — أنا راض بك على أى صورة ..

وهذا كرم منطق منك .. أما الحقيقة فلا بد أن تخضعك لمشيئتها فى مقبل الأيام عند ما تضمنى إليك فيواجهك قلبى المغلق وروحى السجين فى عالم مجهول ...

أنا لا أحبك يا سيدى ...

هذه هى الحقيقة المرة فاحتملها

ولا أحب أن تتزوج بفتاة لا تحبك ... لأن حبك لى لا يكفى وحده لإسعادك ، بل الحياة العائلية تتطلب قسطاً وفيراً من حب المرأة ...

فكيف أعيش معك، وأنا لا أحبك؟ لا تنزعج فلست راغبة إلا فى إسعادك. أنا فتاة صريحة مؤمنة أخاف الله وأواجه الحقائق . فتناسانى يا سيدى وابحث لك عن فتاة تحبك ...

ودعنى أنا أعيش للرجل الذى أحبه ويحبنى ...

لم أشأ أن أواجهك بذلك على مسمع من أفراد العائلة فأخدش رجولتك ، لذا آثرت أن أهمس به فى أذنك ، لكى تنسحب فى هدوء وكبرياء كأنك أنت الذى عدلت وتنحيت ولن تلق لوماً

ولما انتهت من كتابة الرسالة اغتصبت بسمة مريرة وهى تقول :

لقد اعتبرت خلف الرجل جناية... فهل يسمى الخطيب تصرفى جناية أم تراه يحمد لى صراحتى .

جميلة العلايلى